

الأنساق، فلم يكن جنيس العلوم الأخرى التي قصدت في نماذجها مقصد التّوحد والاستقطاب، وفي صميم هذا الشّدوذ كمنت طرافته إذ لم تظهر في صلبه نحلة إلّا وأثمرت منظومتها الاصوليّة التّوعيّة : فإذا بنا نستجمع نمطا ظاهريًا هو «الإحكام في أصول الأحكام» لابن حزم (٣٨٤هـ-٤٥٦هـ) ونمطا اعتزاليًا جاء به رأس العقلانيّة الإسلاميّة القاضي عبد الجبّار (٣٢٠هـ-٤١٥هـ) في مدوّنته المذهلة الموسومة بالمعنى في أبواب التّوحيد والعدل ، ونماذج أشعريّة متلاحقة يبدوها إمام المذهب ويتوافد بها أسلافه ممّن انبروا يعدلون من جموح العقل . وتتبع مختلف أفنان العلوم عند العرب تجد هذه الظاهرة ثابتة التّواتر ، وقد يستوقفك علم التّفسير ردحا من الزّمن ولكنّك واجد منظومته المعرفيه مع فخر الدّين الرّازي (٥٤٣هـ-٦٠٦هـ) في «مفاتيح الغيب» حيث يمسك منذ المبتدئ بزمام العلم في أصوله ومناهجه وقرائنه الموضوعية . أمّا في علم البلاغة فقد تخال عبد القاهر الجرجانيّ (٤٧١هـ) قطب أصولها، فإن أنت واصلت المسار عرفت أنّه سيطر على مضمون العلم دون أن يخرج عن حلقة العلم المخصوص للبحث عن علم العلم ، وهو ما تداركه حازم القرطاجنيّ (٦٤٨هـ) في «منهاج البلغاء وسراج الأدباء» حيث تعاطلت المعارف البلاغيّة والنّقديّة والفلسفيّة .

تلك إذن خصوصيّة نوعيّة في الفكر العربيّ الإسلاميّ، عنها صدرت أصوليّة المعرفة : ما اتّصل منها بالحقائق الإلهيّة وما نفذ منها إلى القضايا الإنسانيّة ، بل إن المعارف الصّحيحة ممّا تختبره العلوم اليقينيّة قد انصهرت هي الأخرى في نسق البحث عن فلسفتها المنهجية فلم يكن، لبعض تلك الأسباب، بدعة أن ترى ابن الهيثم (٣٥٤هـ-٤٣٠هـ) يستهلّ مقدّمة كتاب